مكتبة الكرمل

اختراع اسرائيل وحجب فلسطين

The Invention Of ANCIENT ISRAEL And The Silencing Of Palestinian History, Keith W. Whitelam, Routledge: London and New York 1996, 281 PP.

تعرّضت الدراسات التوراتية لنقد متزايد منذ مطلع القرن، تقريباً، حول مدى صلاحيتها لقراءة تاريخ فلسطين والشرق الأدنى القديم. وقد اكتشف الباحثون، في هذا السياق، تناقض المرويات التوراتية من زاوية الأشخاص والتواريخ والأمكنة، كما أشاروا إلى بعد المسافة الزمنية بين الأحداث وتاريخ كتابتها في عصور لاحقة، وتمكن البعض من كشف تنقيحات كثيرة داخل النص الواحد.

إلى جانب هذا وذاك، ما زالت الدراسات التوراتية عاجزة عن تحويل علم الآثار إلى حليف لحقيقتها المتخيّلة والمفترضة، حيث فشلت الفرضيات التوراتية في العثور على أدلة وبراهين أركيولوجية يعتد بها لدعم روايتها التاريخية، وربما يصدق القول أن المكتشفات الأركيولوجية كثيراً ما أسهمت في نقض المرويات التوراتية التاريخية. ولا يندر العثور في كتابات المختصين على أمثلة صريحة لأشكال مختلفة من التزييف والقراءات المغلوطة لحجب ما تنذر به الحقيقة الأركيولوجية من تبديد لحقيقة الواقعة التوراتية.

لكن هذا النقض والنقد لم يصل إلى حد تحرير التاريخ الفلسطيني نفسه من قبضة الخرافة، بما ينطوي عليه الأمر من صياغة لمفاهيم ومناهج جديدة، وإعادة تحقيب للفترات التاريخية، ودراسة موضوعية للمكتشفات الأركيولوجية، أي تأسيس علم خاص ومستقل للتاريخ الفلسطيني، كما هي الحال بالنسبة لتواريخ أقوام ومناطق أخرى من العالم.

بهذا المعنى، يكتسب كتاب كيث وايتلام »اختراع إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني» أهميته ومكانته بين الدراسات الأكاديمية المختصة في هذا المجال، ولا يبدو من قبيل المجازفة القول أن ويتلام، بما طرحه من فرضيات وما اقترحه من مقاربات منهجية، قد خلق سابقة ذات آثار بعيدة المدى على تاريخ فلسطين القديم، ومستقبل الأيديولوجيا الصهيونية التي حوّلت التأويلات التاريخية المبتسرة والمغلوطة إلى برهان على جدارة مشروعها السياسي.

يعمل ويتلام أستاذاً للدراسات الدينية في جامع ستيرلنغ. وقد سبق له نشر كتاب بعنوان »نشوء إسرائيل المبكرة من منظور تاريخي» إلى جانب عدد من الأبحاث والدراسات حول التاريخ

الفلسطيني، وتاريخ الإسرائيليين القدماء. ويمكن تلخيص فرضيته الأساسية في هذا الكتاب الجديد في عبارة واحدة: إذا نظرنا إلى التاريخ الفلسطيني القديم من منظور شامل فإن التاريخ الاسرائيلي يبدو كلحظة عابرة في ذلك التاريخ. وما حدث في الواقع كان تحويل تاريخ فلسطين إلى خلفية عابرة لتاريخ الإسرائيليين القدماء، وإقصاء المشهد التاريخي برمته عن حقل الوعي والدراسات العلمية، لتمكين الفرع من التحوّل إلى بديل للأصل.

يرى ويتلام أن ذلك الإقصاء قد حدث نتيجة لأسباب سياسية وأيديولوجية في أوروبا القرن التاسع عشر، منها ما يتصل بالمركزية الأوروبية وطريقة فهمها لتواريخ الآخرين، ومنها ما يتصل بخضوع التحليل والتحقيب التاريخيين لفكرة الدولة القومية ذات النفوذ الواسع في ذلك القرن، ومنها ما يتصل بالبحث عن جذور توراتية للحضارة الغربية، واعتبار دراسة التوراة العبرية واسطة مناسبة لفهم تبلور المسيحية وتطوّرها، ناهيك عن الدوافع السياسية الكامنة وراء كثير من الفرضيات التاريخية.

كانت نتيجة الإقصاء ظهور ما يسميه ويتلام بخطاب الدراسات التوراتية، أي ظهور شبكة من النصوص والمرجعيات التي تكوّن سلطة يصعب نقضها، وهي سلطة تسعى إلى تعزيز نفسها بشكل دائم من خلال تقديم مزيد من البراهين على صوابها، وخلق آفاق جديدة أمامها، وكبت كل محاولة للتشكيك في منهجيتها أو تأويلاتها التاريخية.

لذلك، استنفذ البحث عن إسرائيل القديمة جهوداً هائلة، ومصادر مادية في الجامعات والمعاهد وأقسام علم الآثار في الولايات المتحدة وأوروبا، وإسرائيل في فترة لاحقة. فهناك كثير من المساقات التعليمية حول تاريخ وأركيولوجيا إسرائيل القديمة، في سياق دراسة التوراة العبرية من زاوية يهودية – مسيحية.

ويمكن إدراك المكانة الهامشية التي يحتلها التاريخ الفلسطيني في بيبلوغرافيا أساسية لتاريخ مملكتي يهودا وإسرائيل تضم أمهات الكتب والمراجع المرموقة، فمن بين ٦٥ كتاباً صدرت ما بين القرن الثامن عشر وأواخر هذا القرن بمكن العثور على كتابين فقط يعالجان تاريخ سوريا وفلسطين.

إلى جانب ذلك، تجري دراسة المرويات والتواريخ التوراتية في أقسام الديانة واللاهوت في المعاهد والمؤسسات العلمية والأكاديمية، وبالتالي لا يجد الطلاب والباحثون في أقسام الدراسات التاريخية مساقات تعليمية، أو تأهيلاً خاصاً يمكنهم من دراسة التاريخ التوراتي أو الفلسطيني عموماً.

وتدلّ بداية ظهور ما يعرف بالأركيولوجيا السورية – الفلسطينية في بعض أقسام التاريخ وعلم الآثار في الجامعات على إدراك لضرورة الفصل بين الأركيولوجيا التوراتية وأركيولوجيا فلسطين وسوريا. ورغم ذلك، لا يمكن القول أن تلك المحاولات كافية في حد ذاتها لتحويل تاريخ فلسطين إلى مساق دراسي مستقل.

فهناك فترة تمتد من القرن الثالث عشر قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد، أي الفترة من عصر البرونز المتأخر حتى العهد الروماني في فلسطين، تخضع بالكامل لهيمنة خطاب الدراسات التوراتية، حيث يتم تعتيم ما قبلها وما بعدها لمصلحة دراسة ظهور وتأسيس اليهودية وممالكها في فلسطين حتى فترة تدمير الهيكل. ولا يظهر التاريخ الاقتصادي والثقافي والسياسي للفلسطينيين قبل هذه الفترة وبعدها، وخلالها أيضا، بل يدخل في باب المستثنى والمسكوت عنه.

ورغم أن المكتشفات الأثرية والمعطيات الأنثروبولوجية تدل على ذلك الوجود، وتمكّن الباحثين من استخدام المادة المتوّفرة في إعادة إنتاج تاريخ أقرب إلى الحقيقة والواقع، إلا أن خطاب الدراسات التوراتية، بما يفرضه من منهجية خاصة في تناول مختلف الحقب التاريخية، وبما يستخدم من سلطة تبعد الباحثين عن تأويلات مضادة، ينجح في طمس الدلالات التاريخية لتلك المكتشفات، أو يعمل على تفسيرها بطريقة مغلوطة في أغلب الأحيان.

وقد وضع ويتلام نصب عينيه، في بداية الأمر، كتابة تاريخ لفلسطين، يقع في مجلدين يعالجان الحقائق المادية والأيديولوجيات وديانات المنطقة، في محاولة لكشف المكانة الهامشية التي يحتلها التاريخ التوراتي في السياق العريض والممتد لتاريخ المنطقة، لكن الحجم الهائل للمادة المتوفرة، وسطوة خطاب الدراسات التوراتية، وصعوبة القيام بأمر كهذا من جانب باحث فرد، ناهيك عن عدم توّفر المناهج المناسبة، فرضت عليه الاكتفاء بتكريس كتابه لنقد ذلك الخطاب، كمحاولة تمهيدية تتيح لعدد آخر من الباحثين مواصلة البحث في هذا المجال.

يستند النقد إلى جملة من المقاربات النظرية تتمثل في كيفية نشوء الخطاب، وتحليل العوامل السياسية والأيديولوجية والاقتصادية لظهوره في أوروبا القرن التاسع عشر. ويمثل بهذا المعنى استكمالاً لنقد المركزية الأوروبية الذي مارسه إدوارد سعيد في كتابيه »الاستشراق« و »الثقافة والإمبريالية«. وبمكن العثور على النفوذ الواسع لكتابي سعيد في المقاربات النظرية لويتلام.

ويتمثل النقد، من ناحية أخرى، في ضرورة استعادة التواريخ المقصاة والمستثناة كمحاولة لتحرير تواريخ شعوب المستعمرات السابقة والحالية من التواريخ التي أنتجها المركز الكولونيالي، ونجح في تحويلها إلى تواريخ معترف بها من جانب الشعوب المستعمرة نفسها، التي أصبحت تتبنى طريقة التحقيب الغربية في وصف تاريخها، وتقبل بمعظم الفرضيات الغربية كحقائق لا تقبل النقض، رغم أنها وضعت لأسباب تتعلق بكيفية رؤية الغربيين للآخرين ولتواريخهم، وليس كدراسة موضوعية لتلك التواريخ.

وفي هذا السياق يشير ويتلام إلى مفارقة قيام أوروبي بما كان على الفلسطينيين القيام به، لأن تحرير تاريخهم القديم يعتبر جزءاً أساسياً

من مشروعهم لبناء الهوّية. كما ينعى عليهم حقيقة تركيزهم على التاريخ الحديث في القرن الحالي والماضي على أبعد تقدير، وإهمالهم لتاريخ فلسطين القديم، مما يتيح لكل منتجي خطاب الدراسات التوراتية إمكانية التصرف بحرية مطلقة في حقل لا ينافسهم فيه وعليه أحد. ولا يقترح في هذا الصدد صياغة تاريخ جديد، على غرار المدارس التاريخية الشائعة، بل العمل على استعادة التاريخ القائم فعلا وتحريره مما يعرقل ظهوره.

فكما كان »الشرق» في خطاب الإستشراق الأوروبي صياغة لغوية وأيديولوجية لما ينبغي للشرق أن يكون عليه، وليس لما هو عليه في الواقع، يمكن القول أن تاريخ إسرائيل المخترع في حقل الدراسات التوراتية كان وما زال صياغة لغوية وأيديولوجية لما لما كان ينبغي ان تكون الممالك اليهودية عليه، وليس لما كانت عليه في الواقع. وإذا كان الشرق المتخيل وسيلة الكولونيالية الأوروبية لتبرير الغزو ورسالة الرجل الأبيض التمدينية، فإن إسرائيل الدراسات التوراتية القديمة كانت وما زالت مصدر شرعية تاريخية للأيديولوجيا الصهيونية، ودليل استمرارية زمنية وعقارية للدولانية اليهودية في فلسطين.

لكن الخلاف على الماضي، كما يعترف ويتلام ، يمثل خلافاً على الحاضر أيضا. وفي كل بحث عن حقيقة بعينها في فترة سابقة ما يدل على تكريس لحقيقة ما في لحظة راهنة. لذلك لم تكن عيون منتجي خطاب الدراسات التوراتية مركزة على الماضي لأسباب موضوعية ومجردة، بل كانت مركزة على حاضر يبحث في الماضي عما يؤكد صدق دعوته ودعواه. حتى التوراة العبرية، كما يرى ويتلام، لم تكن معينة بوصف الحقيقة التاريخية أو الماضي، بقدر حرصها على حاضر تريد تزويد القاطنين فيه بعلامات أيديولوجية عن الذات وأشكال رؤيتها.

أخيراً، يصعب الإفلات من ملاحظة ويتلام عن قيام أوروبي، بما ينبغي للفلسطينيين القيام به لاستعادة تاريخهم وتمكينه من النطق. وإذا كان في اقتراحه بأن هذا الأمر لن يصبح ممكناً إلا بدراسة تاريخ فلسطين القديم في المعاهد والمؤسسات الأكاديمية الأوروبية بشكل مستقل وليس كجزء من حقل الدراسات التوراتية، ما يخص الثقافة الأوروبية نفسها، فإن في تأسيس أقسام خاصة بتاريخ فلسطين القديم في المؤسسات الأكاديمية الفلسطينية والعربية ما يمكن الفلسطينيين والعرب من استعادة روايتهم عن تاريخ يعترف الآخرون بما لحق به من تشويه وحجب عن العيون.

فالمشكلة هي الحاضر، ولا حاضر دون رواية تاريخية تؤكد امتداده في الزمان والمكان. ولا ينبغي النظر إلى الحق والحقيقة كمسلّمات لا تقبل النقض، بل كحقل لصراع بين روايات متناقضة لا تحتكم، للأسف، إلى العدل، بقدر احتكامها إلى سلطة وتقنيات خطاب يؤكدها بقدر ما يضعف من طاقة خصومها على السجال. وقد أصاب روايتنا عن أنفسنا من الضعف ما لا يستحق التجاهل أو السكوت.

حسن خضر

رام الله

جيرار جينيت:«خطاب الحكاية»، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلبي، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧.

– ١ –

حين يتحدث أرسطو عن المحاكاة ودرجاتها، يشير إلى أن «الشاعر قد يتقمص شخصاً آخر كما يفعل هوميروس، وقد يظل هو هو لا يتغير». وفي الحالين كليهما، «فالقصة [أو الحكاية] ليست واحدة – كما يظن قوم – إذا كانت تدور حول شخص واحد. فإنّ الواحد تقع له أمور كثيرة بلا نهايَة، ولا يُعَد شيء منها واحداً ...». وتبعاً لمبدأ الوحدة، «يجب أن تعتمد هذه القصة على الحركة والفعل، كما في التراجيديات، وأن تدور حول فعل واحد تام، مكتمل، له أول ووسط وآخر، حتى تكون كالحيوان الواحد التام فتحدُثُ اللذة الخاصة بها»[١].

مثل هذه المقولات الأرسطية عن «المحاكاة» و«الوحدة»، وغيرها كثير من مقولات المتأخرين من الفلاسفة والنقاد، تنسرب في كتاب (خطاب الحكاية) لجينيت، أو لنقل الخطاب السردي Narrative Discourse – عنوانَ ترجمته إلى الإنجليزية – في محاولة لإقامة تحليل بنيوي متماسك لنص رواية مارسيل بروست «بحثاً عن الزمن الضائع»، وقراءة مختلف «مستويات العمل التراجيدي وأجزائه»، إذا ما تمثّلنا لغة أرسطو. ففي الوقت الذي تقاطع فيه النقد العربي مع نظيره الغربي في الستينات من هذا القرن تعرّف الأول – ابتداءً – على البنيوية، فعمل على اقتراض فرضياتها النظرية وأنساقها المفاهيمية، وما أسست له من طرائق مغايرة لقراءة النصوص الأدبية. ثم، مع توالي العقود اللاحقة للستينات وتقافز حركة الترجمة إلى العربية، تُرجمت دراستان لجينيت أولاهما «مدخل لجامع النص»، وثانيتهما مقالة حول «حدود السرد»، فضلاً عن ترجمة جزء من الكتاب الذي نحن بصدد قراءته عن «المنظور السردي» ضمن كتاب «نظرية السرد: من وجهة النظر إلى التبئير»[٢]، فتعرّف القارئ العربي، للمرة الأولى، اسم جينيت، عبر هذه الترجمات.

– ٢ –

وقد يكون مهمّاً أن نشير، هنا، إلى ارتباط اسم جينيت، في وعي الناقد العربي بنظرية خاصة في تحليل السرد، على الرغم من تأخر ترجمته كثيراً؛ إذ يمثّل هذا الكتاب تطوراً نوعياً في سياق اشتغاله بالبلاغة والسرد، منذ كتابه الضخم "Figures III" ذي الأجزاء الثلاثة التي يمثل كتاب «خطاب الحكاية» جمعاً بين متفرقات منها.

ولعل دراسات السرد تتقاطع، عبرَ وعي جينيت، مع علوم البلاغة والشعريات ودراسات الشكليين الروس والبنيويين؛ وكلها دراسات – أو علوم – تكاد تؤسس لقراءات نقدية مختلفة، حيث تهدف إلى «إعادة تنشيط المعنى داخل الشكل»، على حد قول جيزيل فالانسي[٣]؛ إذ يتساءل جينيت – في هذا السياق – حول تاريخانية النقد وتصنيفاته، من منطلق تمييزه بين علم البلاغة والشعرية، طارحاً سؤالاً من قبيل «ما النقد الذي يتوافق حقاً مع العصر؟»، في الوقت نفسه الذي يدعو فيه إلى إنصاف الشكلية الروسية أمام تشويهات مشنّعيها أو رافضيها.

– ٣ –

يعتمد جينيت قراءات معمّقة لكل من دي سوسير، وبروب، وياكوبسون، وبنفنيست، وجريماس، وغيرهم. كما يتواصل، بصفة خاصة، مع دراستي كل من رولان بارت وتزفيتان تودوروف. ففي مقاله حول «التحليل البنيوي للسرد»، نجد بارت مهتماً بالسرد من حيث هو لغة، وكذلك من حيث هو نظام، فضلاً عن انشغاله بالأفعال والوظائف. إنه ينظر إلى السرد بوصفه «بنية». في حين أن تودوروف يسعى، في مقاله عن «مقولات السرد الأدبي» الذي نُشر، فيما بعد ضمن كتابه «الأدب والدلالة»، إلى صوغ نظرية مكتملة تتعامل مع النصوص السردية؛ إذ يتعرض لرواية «لاكلو» «العلاقات الخطيرة» مفرقاً بدقة بين مظهرين للسرد، سواء من حيث هو قصة Story، أو بوصفه خطاباً Discourse.

– ٤ –

على الرغم من انبثاق نظريات السرد المختلفة من جهود كثيرين من المشتغلين بالنقد النصّي، وبخاصة البنيويون، فإنها قد نحت منحيين متمايزين، تبعاً لاختلاف الموضوع؛ أحدهما هو «الاتجاه السيميوطيقي»، والآخر هو «السرديات». وكلا الاتجاهين ظهر في أواسط الستينات، كما يشير سعيد يقطين[٤]. ويمثّل الاتجاه الأول منهما جريماس، في الوقت الذي يحتل فيه جينيت رأس الاتجاه الثاني.

إن أولهما يتعامل مع السرد بوصفه موضوعاً، محتوى، بينما ينظر إليه الثاني من حيث هو شكل، خطاب أو تعبير. فإذا ما كان السيميوطيقيون يعتنون بالقصة أو «الفابولا» Fable [المتن الحكائي]، فإن السرديين يفكرون في الخطاب أو الـ "Sujet" [المبنى الحكائي]. إن العنصر الجوهري لدى السرديين، وجينيت في مقدمتهم، هو «السردية» Narrativity، أو لنقل الأدبية، بوجه عام، كما أعلن عنها ياكوبسون. وهي خاصّةٌ توجد في الصيغة (أو الشكل) وليس المحتوى. ولذا، فما يهمّهم هو ذلك العنصر الجمالي الكامن في هذا الاختلاف المتعلق بالعمل الحكائي الذي تتعدد أشكاله بتعدد مدلولاته.

– ٥ –

مثلما فعل تودوروف مع لاكلو، يتوجه جينيت نحو رواية بروست «بحثاً عن الزمن الضائع» مختبراً نظريته السردية، من ناحية، ومثبتاً أن المحللَ السردي الجدير بالثقة – بتعبير واين بوث – هو ذلك الذي يختبر منهجه وأدواته الإجرائية مع نص سردي بعينه، وذي قيمة من ناحية ثانية، ونافياً – كذلك، من ناحية ثالثة – ما شكّك فيه بعض المشكّكين الذين يدّعون أن التحليل البنيوي لا يلائم إلا أبسط الحكايات، كالحكايات الشعبية مثلاً[٥].

لنتأمل – بدايةً – عنوان الكتاب «خطاب الحكاية» ذا الدوال الثلاثة : «خطاب»، «حكاية»، «خطاب الحكاية». إن مفهوم «الخطاب» يشير، من ناحية، إلى الطريقة التي تتشكل بها الجمل مكونةً نظاماً متتابعاً تسهم به في نسق كليّ، على نحو تشكّل به نصّاً مفرداً، أو تتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكّل خطاباً أوسع يحوي عدداً من النصوص تتجاوز النص المفرد[٦]. إنه انتظام الجُمَل والفقرات والمشاهد بطريقة ما.

وكما أن السرد ينهض على قصة أو مادة حكائية، فإنّ له خطاباً أو تعبيراً لغوياً يتجسّد فيه، أو «حكاية» بالمعنى الذي يستخدمه

مترجمو الكتاب.

فإذا ما انتقلنا من هذا المفهوم الضيّق للخطاب إلى مفهومه الأرحب، حيث اتّساع شبكة التواصل بين المرسل والمستقبل، فإننا حينئذ سنكون بإزاء تحوّل أساسي من مركزية «اللغة»، حيث النسق المغلقْ، إلى مركزية «الخطاب» حيث النسق المفتوح الذي يعني إدخال ذوات ناطقة في الاعتبار (مخاطِب، مخاطَب). وهنا، قد يُستدعى مفهوم «تحليل الخطاب»، ذلك الذي قد يُشار به إلى مجالات يتزايد اتساعها من الدراسات البينية أو عَبر التخصّصية التي تصل علوم اللغة بالاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة والتاريخ. كما تصل علوم الإعلام والاتصال بالدراسات الثقافية والسياسية والأدبية، وبالعلوم الطبيعية الخالصة، إلى آخر ذلك من مجالات معرفية متنوعة.(٧)

١-٥

يحاول جينيت، في هذا الكتاب، تأصيل نظرية في الخطاب السردي تتناول أبرز المشكلات التي تواجه المحلّلين السرديين. ولذا، يتعرّض الكتاب للمقولات الأساسية الثلاث التي توقف عندها تودوروف (الزمن – الجهة أو المظهر – الصيغة أو النمط). لكن جينيت سوف يختلف معه – مبدئياً – فيما يتعلّق بالمقولتين الأخريين، فضلاً عن توسيعه مفهوم الأولى. والكتاب يقع في تصدير وخمسة فصول وخاتمة.

ففي التصدير الذي قدّمه جوناثان كولر نجد احتفاءً بالكتاب كبيراً، إذ هو – من منظور كوكر – «لا يُقدّر بثمن؛ لأنه يسدّ الحاجة إلى نظرية منظمة في الحكاية» (ص٢٣)، فضلاً عن أنّ كلّ قارىء له سوف يصبح «محلِّلاً للمتخيّل أكثر حدّة ذهن ودقّة ملاحظة من ذي قبل».

أما الفُصول الثلاثة الأُوَل (الترتيب أو النظام Order، والمدّة Duration، والتواتر أو التردّد Frequency) فتصبّ في مقولة الزمن، تلك المقولة الأولى – أيضاً – لدى تودوروف. فمفهوم «الترتيب» يحيل إلى علاقة زمن القصة بزمن الخطاب (أو الحكاية)، أو «زمن المدلول وزمن الدال» (ص٤٥). ولذا، فإن جينيت يقف إزاء مفاهيم كالاسترجاع والاستباق وأنماط كلٍّ منهما. بينما «المدّة» تتّصل بوجه آخر من أوجه علاقة القصة بالخطاب، ألا وهو تلك المدة الزمنية التي يستغرقها المقطع السردي، وهو مفهوم أقرب إلى السرعة؛ أعني العلاقة بين قياس زمني وقياس مكاني (ص١٠٢). وتبعاً لعلاقة مدة القصة بطول الخطاب، فإن هناك أشكالاً أربعة هي : «الوقفة»، و«المشهد»، و«المجمل»، و«الحذف». أمّا «التواتر» فيتعلق بالوجه الثالث من أوجه علاقة القصة بالخطاب؛ أي علاقة التكرار أو التردّد، إذ ليس لحدث من الأحداث أن يقع مرةً واحدة فحسب، بل يمكنُه أيضاً أن يقع مرةً أخرى (ص ١٢٩). ولذا، فهناك احتمالات أربعة لسرد قصة واحدة أو حدث واحد (ص١٣٠-١٣١).

أما الفصلان الرابع والخامس فيتعلقان بكل من «الصيغة» mode و«الصوت» Voice، على الترتيب، وكلاهما وجهان من أوجه السرد. ففي الوقت الذي يستخدم فيه تودوروف مفهوم الجهة أو المظهر بمعنى «الطريقة التي يدرك بها الراوي القصة»، ويشير بالصيغة أو النمط إلى «نمط الخطاب الذي يستخدمه الراوي» (ص٤٠-٤١)، فإن جينيت يربط بين الصيغة وما يتعلق بأنماط التمثيل السردي وأشكاله ودرجاته، أو لنقل ما يتعلق بمفهوم «التبئير» Focalization. أما ما يتصل بالكيفية التي يبدو – أو يتجلّى – بها السرد نفسه؛ أي المقام السردي ومعه محركاه : الراوي ومتلقّيه الواقعي أو الضمني – فإنه يسميه «الصوت».

والحقّ أنّه لا يمكن الفصل بين هذين المفهومين (الصيغة والصوت)، فكلاهما وجها عملة واحدة هي السرد: يتّصل أوّلهما بمبحث الرؤية أو الإدراك (وجهة النظر أو المنظور)، في حين يختصّ ثانيهما بمبحث الكلام أو النطق. ومفهوم الصوت، هنا، مغاير تماماً لمدلوله عند باختين الذي يدفع به إلى مظهره الأيديولوجي الخالص.

٢-٥

لعلّ الإنجاز المهم لمشروع جينيت، في كتابه هذا، يكمن في تعامله العريض مع مفهوم «وجهة النظر»، مفرّقاً بحساسية بالغة بين الصيغة والصوت، أو «مَنْ يَرى» و«مَنْ يتكلم»؛ أي بين السؤال عن: مَنْ الشخصية التي توجّه وجهة نظرها المنظور السردي؟ والسؤال المختلف عنه كلية: مَنْ الراوي؟ فأوّلهما سؤال عن التبئير ودرجته، أمّا ثانيهما فهو سؤال عن الصوت، عن «المتكلم في الرواية» إذا استعنّا بمصطلح باختين.

حول هذين المفهومين المركزيين (الصيغة / الصوت)، بخاصة، سوف تنشأ حلقة من النقاشات تتصاعد بنظريّات السرد لتتجاوز «السرديّات» كثيراً من مفاهيم جينيت، وإن كانت تقوم عليها أساساً، إلى مفاهيم أخرى شتّى لدى كلّ من شلوميت، وميِّك بال، وبيير ڤيتو، وجان إيرمان، وساندرو بيريوزي... إلخ.

وفي الخاتمة، يذكّرنا جينيت بمبدأ التراكم المعرفي؛ إذ نراه واعياً، بل ومطالباً، بضرورة تطوير هذه «الترسانة» من المفاهيم - على حدّ قوله - بعد مرور بضع سنوات؛ وهو الأمر الذي تحقّق جزء كبير منه مع بعض الأسماء التي ذكرناها، فضلاً عن تطوير جينيت نفسه بعض مفاهيم هذا الكتاب - فيما بعد - في كتابه اللاحق «خطاب الحكاية الجديد». لكن جينيت يبدو، هنا، أكثر انزعاجاً بصدد تطبيق مثل هذه المقولات على رواية بروست، فيطالب بقدر من المرونة عند التعامل مع النصوص (ص٢٧٩-٢٨٠). إنّ هذه الترسانة من المفاهيم تشبه، كما يقول، قوانين «عرفية واختيارية تماماً، ولا ينبغي تجميدها في معيار» (ص٢٨٣).

٦-

على الرغم من المزالق التي قد يسقط بداخلها النقد النصّي، أو البنيوي؛ إذ يغفل التاريخي والأيديولوجي، أو يتجاهل سؤال «المرجعية»، فإن جينيت يؤسّس بكتابه هذا اتّجاهاً نصيًّاً متميّزاً، ضمن الاتجاهات الكثيرة المشتغل أصحابها بالسرد. لكن، لنتساءل - هنا - حول المفهوم المركزي لهذا الإنجاز، وأظنّه مفهوم «الخطاب»، ذلك الذي قد اكتسب مدلولات عدة تبعاً لاتجاهات مستخدميه. إنه مفهوم يكاد يومىء إلى مبدأ «الوحدة» الأرسطي الذي افتتحنا به هذه القراءة؛ فكلاهما يشير إلى النسق أو النظام.

لكن مفهوم الخطاب، بمعناه الخاص، في هذا السياق، يحيل إلى الجملة، أو لنقل نحو الجملة السردية، وإمكان تحليلها من حيث الفعل (السرد)، والفاعل (السارد)، والمفعول له (المسرود له)، والمفعول فيه (السياق - مقام السرد).

إنّ جينيت يعيد النظر في المقولات الثلاث السابقة (الزمن، الجهة، الصيغة)، فيوسع من أفق أولاها، ليُدخل زمن القراءة وزمن الكتابة، بوصفهما محددين أساسيين لتحليل زمن الخطاب، في الوقت نفسه الذي يحلّ فيه مشكل «الرؤية» في النظريّة السرديّة. فعلى الرغم من أنّه يفيد من كل من تودوروف ومن قبله جان بويون حول مفهوم «الرؤية» ودرجاته، فإنّه يعتمد مصطلح «البؤرة» لدى كل من بروكس

ووارين ليصوغ مفهومه الخاص عن «التبئير» حتى يمكنه تجنب المدلولات البصرية المفرطة لمصطلحات «رؤية» و«حقل» و«وجهة نظر»، على حدّ قوله (ص ٢٠١).

واعتماداً على تصنيف تودوروف الثلاثي لدرجات الرؤية (رؤية من الخلف، رؤية – مع، رؤية من الخارج)، فإنّه يصوغ درجات التبئير أو أشكاله (اللاتبئير أو التبئير الصغرى، التبئير الداخلي، التبئير الخارجي) التي يُشار بها إلى أن خطاب السرد قد يتضمن بؤرة ما تتحرك منها أو حولها الأحداث، ربّما تقع بالداخل، أو الخارج، وكثيراً ما تنعدم البؤرة، فيكون الخطاب – عندئذ – غير مبأّر، إذ الراوي، ساعتها، يكون كلّيَ المعرفة، يتجاوز الزمان ولا يحويه مكان.

أما مفهوم «الصيغة»، فيتضمن مصطلحين جزئيين أحدهما هو صيغة الفعل mode [ومعها المسافة]، والآخر هو وجهة النظر أو المنظور. وكلاهما يرتبط بمبحث الرؤية السردية. في حين أن الصوت يتّصل بالرّاوي وبالضّمير / السارد، أو لنقل «علاقة المنطوق بذات النطق»؛ إذ ليست الذات هنا هي من يفعل الفعل أو يقوم به فحسب، بل هي أيضاً مَنْ ينقله (وقد يكون ذلك الشخص أو غيره) (ص٤٢). وفوق ذلك، تمثّل هذه الذات كل أولئك الذين يساهمون في هذا النشاط السردي؛ أي المقام السردي بوجه عام، ذلك الذي يصفه «برنس» بأنه «السياق المكاني – الزماني لذلك الفعل، متضمّناً معه الراوي والمروي له»(٨).

١–٦

انطلاقاً من مقولة جينيت حول التبئير، تبدأ المداخلات التي توسع من دائرة الدراسات المهتمة بالسرد، أو بخطاب السرد. فـ«شلوميت»، مثَلاً، تستعيد تفرقة «ميّك بال» بين فاعل التبئير ومفعوله التي ردّت بها على جينيت؛ إذ السرود – كما تقول شلوميت عن «بال» – لا تُبأّر فقط بواسطة شخص ما، لكنها أيضاً تبئّر على شخص أو شيء ما. فالمبئّر (أو فاعل التبئير focalizer) هو ذلك الوكيل الذي يوجّه فهمُهُ حركة التقديم السردي، في حين أن المبأّر (أو مفعول التبئير focalized هو ما يدركه المبئّر، أو ما يقع عليه تركيز الخطاب. كما تشير شلوميت إلى أن الصيغة والصوت قد يلتقيان، حين يتزامن «من يرى» و«من يتكلّم»، فيصبحان شخصاً واحداً، هو ما تسمّيه «وكيل السرد»(٩).

من هنا، تكثر المداخلات حول مفهوم التبئير؛ بوصفه واحداً من أهم المفاهيم السردية، كثَرةً لافتةً للنظر ومتشعبةً شُعَباً شتّى...

|

أظنّ أنّ اعتماد جينيت مرجعية راسخة في النقد البنيوي هو ما جعله يعلن، عن أنّ قاطرة النقد ينبغي لها أن تقود مركبة النظرية، لا العكس. ولذا، «فالتوجّه [لديه] من الخاص إلى العام؛ أي من ذلك الكائن الفريد الذي هو رواية «بحثاً عن الزمن الضائع» إلى عناصره المألوفة كثيراً» (ص٣٤–٣٥). ومن ثم، فله الحق في أن يشير إلى أنه إذ يبحث عن الخصوصي يجد الكوني، وإذ يريد أن يجعل النظرية في خدمة النقد يجعل النقد في خدمة النظرية بالرغم منه.

وهنا، أتساءل: أين تسير بنا مركبة النقد الأدبي المعاصر، مع نهايات هذا القرن؟ وأين نحن – النقّاد العرب، أو نقّاد العالم الثالث – من هذا السياق؟

شحات محمد عبد المجيد
القاهرة

الهوامش:

(١) كتاب أرسطو طاليس فن الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي، من السرياني الى العربي، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية: شكري محمد عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ص: ٣٤, ٦٢, ١٣٠.

(٢) أنظر: نظرية السرد، من وجهة النظر الى التبئير، جيرار جينيت وآخرون، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

(٣) مدخل الى مناهج النقد الأدبي، مجموعة من الكتاب، ترجمة رضوان ظاظا، مراجعة المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، عدد ٢٢١، مايو – ١٩٩٧، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ص٢٣٣.

(٤) سعيد يقطين، نظريات السرد وموضوعها، في المصطلح السردي، مجلة «نزوى»، عمان، العدد التاسع، يناير – ١٩٩٧، ص٦١.

(٥) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص٥٤. وسوف نحيل اليه في المتن بعد ذلك.

(٦) أنظر كلاً من: رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، آفاق الترجمة، عدد(١)، ١٩٩٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص١٨٦.

– إديث كريزويل، عصر البنيوية، آفاق الترجمة، عدد ١٧، أغسطس ١٩٩٦، ص ص: ٣٧٩ – ٣٨٠.

(٧) جابر عصفور، آفاق العصر، مهرجان القراءة للجميع – ١٩٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ص ٤٥, ٧٢.

(8) Gerald prince; Adictionary of Narratology, university of Nebraska press, 1987, p.57.

(9) Shlomith Rimmon - Kenan, Narrative fiction: Contemporary poetics, General Editor: Terence Hawkes, Metheuen, London and New York, 1983, P P. 71 - 72.